الأدب الشعبي وسؤال التهوين والتهويل

Folk literature and the questionof understatement and exaggeration

د.أحمـــــــد زغب
المركز الجامعي بالوادي
(***zegheb@yahoo.fr***)

ملخص البحث

على الرغم من الاعتراف بخطورة وأهمية الأدب الشعبي فإن مظاهر الاستصغار والنظرة الدونية لا تزال تطارده، وهذا لأسباب عديدة موضوعية وإيديولوجية ونفسية وتاريخية...وهذا البحث محاولة لتسليط الضوء على هذه الأسباب لتطرح السؤال حول وجاهتها من جهة، وإمكانية العمل على تجاوز بعضها على الأقل من جهة أخرى.

Abstract

Despite the official, elite and popular recognition of the seriousness of the danger of folklore heritage in general and folk literature in particular as a component forming the core of the cultural identity of the nation, and a bulwark against the strong winds that tried and are trying to be ridden entity of the nation and undermine the national culture, the manifestations of the belittling and perception of inferiority still haunted it by the vaunted intellectuals, academic scholars themselves and this is due to several ideological ,psychological and historical reasons

This research is an attempt to shed light on these reasons to raise the question about their relevance; on one hand, and the possibility of overcoming at least some on the other hand.

The Scientific study task is understanding and interpreting with neutrality and objectivity far from underestimation and value judgments which aimed to dramatize it.

لكلّ أمة موروثها الثقافي الشعبي، الذي يسكن وجدان أفرادها، ويعتبر مكنون عقلها الباطني، ومن ثَمّ فهو يؤثر ويحيي ويوجه سلوكاتهم، وإن بدرجات متفاوتة، وسواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة[1]، ويمثل خلفية ذات فعالية نفسية وفكرية في حياتنا المعاصرة[2] ومن هنا تتجلى أهميته وضرورة الانتباه إليه، والوقوف عنده وقوفا متأنيا، من أجل دراسته دراسة عقلية، على الرغم من كلّ الأوصاف التي تضعه في مرتبة دنيا، أو تعتبره من الركام الثقافي الذي تجاوزه الزمن.

فالموروث الثقافي الشعبي يمثل عنق هوية الأمم، ويمثل عنق هويتها ومدخراتها التي لا تنضب، ففي المحن الكبرى تلوذ الأمم بموروثها، تستمد منه روح المقاومة، ومقومات البقاء والصمود، وقد أثبتت الحوادث الكبرى التي مرت بها أمتنا أنّ الثقافة الرسمية المؤسساتية تتلاشى أو تتقوقع فلا تعبر إلا عن نخبة ضعيفة شبه منعزلة عن مجتمعها، بمجرد تقويض المؤسسة الرسمية، بينما تصمد الثقافة الشفاهية، ويصعب تحطيمها؛ لما لها من مقومات لا يمكن التحكم فيها بسهولة، كشفاهية الانتقال، وعدم اعتمادها على منابر محددة، إنما يجدها الشعب في كلّ مكان: في البيت والسوق والمسجد والشارع....الخ

سؤال التهوين:

وعلى الرغم من كلّ هذه الأهمية، فقد كان يُنظر إلى الموروث الشعبي عامة، والأدب الشعب خاصة، نظرة استصغار، وذلك منذ القديم، فقد وصفت بأبشع النعوت من قبل المراكشي وابن بسام وابن حزم...الخ. فابن حزم مثلا فيقول إن هذا الشعر العامي الذي يرتبط بالغناء والسِّماع والرقص، لا يغنّيه إلا أهل السفه من كناسي الحشوش والمعاناة بصنعة الزمير وضرب القرقرة.[3]

أما في عصرنا فكثير من الدارسين اعتبروا الاهتمام بالأدب الشعبي هدما للغة العربية الفصحى الموحدة للأمة، ويرى" أن الأدب الشعبي يجب أن ينحصر في مجالس السمر، وأن يكون محصورا في المشافهة، لا أن تقام له

دراسة خاصة، وتقرر في الدراسة الأدبية في المدارس والجامعات؛ لأن الأدب الشعبي يحمل خصائص اللغة العامية الركيكة، واللهجات المحلية الواهية، فإذا جعلناه ذا دراسة مستقلة، وأصبح مادة بحث لشهادة الماجستير والدكتوراه في الأدب، عند ذلك لا نأمن على لغتنا الفصحى من الضياع"[4].

أما الدكتور أبو القاسم سعدالله فيرى أنه يجب على المثقف أن يترفع عن الأدب السوقي أو العامي؛ لأن ذلك ينحدر بمستواه الثقافي، وربما الأخلاقي والاجتماعي[5].

ومن التهم التي يتهم بها الأدب الشعبي عادة، النظرة الإقليمية الضيقة، والتعبير عن البيئة المحلية "فالشاعر الشعبي لا يطرح القضايا في إطار قومي إنساني، وإنما يطرحها في إطار إقليمي ضيق، يكاد ينحو منحى جهويا واضحا"[6].

كما يغلب على الشعر الشعبي الإسفاف في التعبير، والضحالة، وهيمنة بنية التكرار، وخشونة الطبع[7]. بالإضافة إلى أنه قائم على التلقائية والعفوية والبساطة، والاعتماد على شفاهية التداول، حيث يطغى النسيان والمحو والاستبدال وإعادة الترتيب..

وفي الواقع، ونحن نقلب هذه الأوصاف القادحة في شأن الأدب الشعبي، لا نجدها متنكبة جادة الصواب في كثير من الأحيان، غير أنها ليست مبررا للانصراف عن الأدب الشعبي، فالدراسة العلمية شيء، وأوصاف القدح والمدح شيء آخر، مختلف اختلافا جذريا، وهذه النظرة الدونية للأدب الشعبي نتيجة منطقية لعدة أسباب، لا بد من تسليط الضوء عليها، لنطرح السؤال في مدى وجاهتها، وفيما إن كانت تسوِّغ لأصحابها إهمال الموروث الشعبي، ومن ثمّ نبحث في إمكانية تجاوزها.

الأسباب الموضوعية:

إن الأدب الشعبي بطبيعته أدب الطبقات الدنيا من المجتمع، أدب العمال والفلاحين والرعاة والحرفيين....الخ، وهؤلاء يعتمدون الشفاهية

آلية للتفكير والتعبير، والفرق كبير بين مجتمعات شفاهية، وبين من يمتلك تكنولوجيا متطورة وخطير للفكر والتعبير والإبداع، هي تكنولوجيا الكتابة.

فالكتابة غير شكل الوعي الإنساني أكثر من أي اختراع آخر، فهي تخلق لغة طليقة من السياق، أو خطابا مستقلا، وهو خطاب لا يمكن مساءلته أو معارضته، على نحو ما يحدث في الخطاب الشفاهي، ذلك لأن الخطاب المكتوب منفصل عن مؤلفه.[8]

هذا من جهة، ومن جهة أخرى"فإن أشكال الأداء الشفهي مؤثرة بحكمتها الجماعية، المفرغة في أسلوب فخم ...ومع ذلك فالحكمة لا بد أن تتعامل مع سياق اجتماعي كلي وغير قابل نسبيا للانتهاك؛ ذلك أن الدقة التحليلية، لا تتوسم في اللغة والفكر في حالة استخدامهما استخداما شفهيا....لكن الكلمات المكتوبة تشحذ التحليل، لأنها يطلب منها أن تصنع ما هو أكثر من ذلك، فلكي توضح نفسك دون إشارة أو تعبير بالوجه أو تنغيم بالصوت، عليك أن تتنبأ بحذر بكل المعاني الممكنة، التي يمكن أن تحملها عبارة ما لأي قارئ ممكن في أي موقف ممكن، وعليك أن تجعل لغتك فاعلة، بحيث تصبح واضحة تماما بذاتها، دون سياق وجودي يضمها، إن الحاجة إلى هذا الحذر الشديد تجعل الكتابة عذابا"[9].

وشتان بين فكر قادر على الانفصال عن الموضوع، وعلى التجريد، ووضع الأفكار في حيز مكاني قابل للنظر إليه، وتخزينه وتقطيعه وإعادة النظر إليه،[10] وبين فكر غير قادر على الفحص المتتابع بشكل مجرد، والتصنيف والتحليل والدراسة؛ لأن هذه الأعمال كلها مستحيلة دون الكتابة.[11]

فمن الإجحاف أن نضع مرجعيتنا -بشعور منا أو دون شعور- إبداعا تدعمه تكنولوجيا خطيرة إلى هذه الدرجة، من أجل النظر إلى إبداع؛ طابعه العفوية والتلقائية الاندماج في البنية الاجتماعية..

ومن الإجحاف أيضا استخدام معايير الأدب الكتابي النخبوي لتقويم الأدب الشعبي، الذي يستخدم وسيلة تعبير لا تحكمها معايير للسانيات والبلاغة بقدر ما تحكمها معايير التداول الاجتماعي، ومن ثم فإن تلقي الأدب المكتوب بلغة معيارية (فصحى) يتم على نحو متشابه من حيث الاستساغة، أما تلقي أدب اللهجية المحكية، التي تختلف من منطقة إلى أخرى، فيتفاوت في درجة فهمه وتذوقه من قارئ إلى آخر، بحسب قربه أو بعده من اللهجة المحلية.

الأسباب الأيديولوجية:

حدث في أغلب المجتمعات، ومن اللحظة التي وصلت فيها إلى تأسيس الدولة، ثنائية قطبية ولدت تواترات بين ثقافة مهيمنة وثقافة تابعة مهيمن عليها. هذه التوترات أدت إلى وقوع انفصال كامل على مستوى المعارف والعقليات والذوق، وفن الحياة والبلاغات بين الطبقة الحاكمة وما يحفها من نخبة سياسية وفكرية، وبين سائر الرعية،[12] ومن ثم أخذت هذه الهوة في الاتساع والعمق.

لذلك فإن مصطلح (**شعبي**)، والذي يشير إلى نوع من الإنتاج الأدبي، يتصف بأنه فطري خالص، مقابل إنتاج محكم حسب قواعد الفن، الأول نسبة إلى الطبقة الدنيا، والثاني نسبة إلى الطبقة العليا، ليس مصطلحا علميا، وحسب بول زوميتور فهو لا يصوغ أي مفهوم، إنما هو مجرد وجهة نظر،[13] قائمة في عمقها على نوع من التصنيف الإيديولوجي، ينأى بكل ما هو شعبي عن الجدية، ويجعله مقترنا بما هو عامي أو بدائي أو متخلف[14].

إن هذا التصنيف جعل الطبقة المتنفذة في المجتمع تهتم بأدبها المحكم بتدوينه، وتفرضه على عامة الشعب، وتعتمده في المؤسسات الرسمية؛ كالقضاء والمسجد والمدرسة، وهم يمتلكون الإمكانات المادية والمعنوية لفرضه، حتى أن المؤرخين يحدثوننا أن عامة الناس إذا اضطروا إلى مخاطبة رجال الدولة تكلفوا لغتهم المعيارية، ونظموا شعرا خاضعا

لمعايير الشعر الفصيح، ويضرب المرزوقي مثالا بمخاطبة عنان بن جابر شيخ قبيلة بني مرداس أبي زكريا الحفصي (7هـ) بقصيدة جزلة لا تختلف في شيء عن الشعر الفصيح، بينما ينظمون شعرهم بلهجتهم المحلية[15].

أما أدب الطبقات الدنيا فيسير في الأرياف والبوادي، يُنسَج باللغات الشفاهية المحلية، ينشأ ويزدهر ويذوي ويندثر في صمت دون أن يجد اهتماما من الطبقة العليا إلا نادرا، وربما سيق في إشارات عابرة للتندر والترويح ودفع الملل، على نحو ما يسوقه الجاحظ من أخبار المغفلين والمجانين والحمقى....الخ.

لكن الدراسة العلمية يجب أن تنأى بنفسها عن كل التأثيرات الإيديولوجية؛ فالعلم يطرح الأسئلة حول الظواهر الثقافية من أجل فهمها وتفسيرها، والوصول إلى النتائج العلمية الصحيحة، بغض النظر عن رؤيته الفئوية لهذه الظاهرة، أو تقييمه المسبق لها.

الأسباب التاريخية:

لم يكن أحد في المجتمعات العربية يهتم بجمع وتدوين الأدب الشعبي، حتى جاء الإثنوغراف الغربيون، والمستكشفون والقادة العسكريون الاستعماريون، وأخذوا يتوغلون في الأوساط الشعبية، يجمعون حكاياتها وأساطيرها وشعرها وأمثالها، ويسجلون عاداتها وتقاليدها من أجل دراسة ذهنية الشعوب المستعمَرة و ثقافتها.

ولم تكن جهود هؤلاء خالصة لوجه العلم، إنما كانت ذات أغراض مشبوهة، سخرت لخدمة الاستعمار، وتسهيل سيطرته على الشعوب، وقد اعترف بعض هؤلاء حين أدركوا مهمتهم غير الإيجابية أن إيديولوجيا الاستعمار والدراسات الإثنوغرافية الميدانية مترابطان[16].

وبعد أن حصلت الشعوب على استقلالها السياسي، بقي هذا الشعور مسيطرا، وهو الانطباع الذي جعل السلطة الحاكمة تهتم بالثقافة العالمية والنخبوية، وتستثني الثقافة الشعبية، لما علق بها من انطباع

قديم، يذكر باستغلالها استغلالا غير شريف من قبل الأوروبيين، وكأن الاهتمام بالموروث الشعبي لا يكون إلا للأغراض الاستعمارية المشبوهة.

غير أننا ههنا نؤكد أن الثقافة الشعبية لا ذنب لها إذا استغلت استغلالا سيئا من قبل الاستعمار، فالدارسة العلمية سلاح ذو حدين، والنتائج حيادية، وإذا كانت الإيديولوجية الاستعمارية سخرتها لصالحها، فإن بإمكان الإيديولوجية الوطنية أن تسخرها لأغراض شريفة.

الأسباب النفسية:

كثير من الدارسين، يعتقدون أنه لا بد من دوافع ذاتية، كالميل إلى الموضوع المراد دراسته، واستساغة نصوصه مثلا، وقربه النفسي لأصحابه، والواقع أنه إذا قسنا هذه الرغبة على كل الموضوعات العلمية في سائر المجالات لما كانت هناك من المواضيع التي تستهوي الدارسين إلا القليل.

فالميل والرغبة وما ينبغي أن يستهوي الدارس هو المعرفة والحقائق العلمية، أما الموضوعات فكلها سواء ما دامت صالحة للدراسة. والباحث الذي يترفع عن السوقة والدهماء ويستنكف من اللقاء بهم وجمع ثقافتهم يجب أن يفكر في عالم البيولوجيا الذي يقضي وقته في مراقبة نوع من الحشرات أو الديدان.

سؤال التهويل:

في مقابل ذلك يعتقد بعض الناس أن الأدب الشعبي يُدرس من أجل بيان أهميته وجمالياته، ويجعلون من بين أهدافهم تمجيده، ونفي التهم عنه بالضحالة أو الإسفاف وما سوى ذلك، فينهمكون في البحث والتنقيب عن الفضائل والأفكار التي يرون أنها لامعة، لكي يزعموا بعد ذلك أن هذا هو الأدب الرفيع، وأن من الخطأ أن نعتقد أن هؤلاء أميون وجهلة، ومن ثم يبحثون عن مواطن التشابه بين شعر المتنبي وشعر بن قيطون مثلا....

ولا مجال في هذا الحيز المحدود أن نسهب في ذكر الأمثلة التي تثبت أن كثيرا من الباحثين يجعلون نصب أعينهم تثمين الشعر الشعبي مثلا ونفي التهم عنه، غير أننا نأتي ههنا بمختزئ من مقدمة أحد الباحثين في رسالة دكتوراه يصرح فيها بالهدف منذ البداية:

"وباعتبارنا من أصحاب الاختصاص، ولم نبذل جهدا لتثمين ما له وإبطال ما عليه، وكم من مرة تصل آذاننا أقوال فيها من الجرأة ما يجعل أهلها يجهرون بآراء...حول هذا الشعر وحقيقته، فيرمون أصحابه بعدم النضج الفكري، وبسذاجة العقول وبساطة الأفكار والمواهب من جهة، وكذا بعدم بلاغة ما يقولونه من شعر من جهة أخرى"[17].

ثم أسهب الباحث في مقارنة الشعر الملحون بشعراء الفصيح فلم يترك امرأ القيس ولا عنترة العبسي ولا كثير عزة ولا قيس بن ذريح ولا المتنبي ولا أبا تمام إلا وسرد أشعارهم في محاولة اتخاذهم معيارا لقياس بلاغة الشعر الملحون الجزائري. وأخيرا يصل إلى هذه النتيجة الغريبة فيقول:" بعيدا عن أي تطرف أو تعصب لهذا النوع من الشعر سواء بالوقوف معه أو ضده، لا بد أن نشير إلى أن القصيدة الشعبية...قد بلغت من الغنى الفني ما يجعلها راقية ذات مستوى رفيع، رغم مرورها بالشفوية..."[18]

والذي أميل إليه بعيدا عن استصغار وتهوين البعض وتضخيم وتهويل البعض الآخر، هو أن النص في الموروث الشعبي عبارة عن خطاب، ودراسة الخطاب يجب أن تكون تأويلية سيميائية" تأخذ في تفسير المعطيات، وتأويل العلاقات بين العلامات، تنطلق من النص وتعود إليه في حركة دائبة، ومن ثم فإن التأويل يختلف حسب ثقافة الدارس، ولا يكون صحيحا أو مخطئا، إنما يكون ثريا أو ضحلا فقيرا، بشرط أن لا يلغي النص معطياته، ولا يلغي التأويل نفسه، فيأتي بما يأتي به النص، دون إضافة شيء مما يستوحى من خلال معطياته، أما القراءة الحية فهي فاعلة منتجة في الاختلاف عن النص و به وله"[19]، ومعنى ذلك أن هدف الدارس هو الفهم والتأويل، فالنص وهو الموضوع المطلوب للدراسة، يملك من الخواص الخارجية ما يسمح لنا بمشاهدته على نحو

مباشر، ومعرفتنا بالموضوع تأتي من عالم الموضوع، ولا تأتي من عالم الذات، ومن ثم فإن الدارس لا يطلب منه تثمين أو بخس العمل الأدبي، إنما ينبغي أن يقف منه على مسافة، محاولا وصفه، واستخراج المعطيات الحسية التي تتمتع بدرجة كافية من الموضوعية العلمية، ونبذ المعطيات الحسية التي يغلب عليها الطابع الشخصي، ويعتمدها في تأويل ومحاولة فهم النص في سياقه الاجتماعي والانثربولوجي الذي أنتجه.

الهوامش والمراجع المعتمـــــــدة

(1) ينظر: على زيعور.صياغات شعبية حول المعرفة والخصوبة والقدر، دار الأندلس بيروت 1984. ص9.

(2) عبد الحميد بورايو، البطل الملحمي والبطلة الضحية.

(3) حسن نجمي: غناء العيطة الشعر الشفوي والموسيقى التقليدية في المغرب، ج1 دار توبقال للنشر الدار البيضاء 2007.ص35.

(4) نذير المكتبي، الفصحى في مواجهة التحديات، ط1 دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1991.

(5) د.سعد الله، تصدير لكتاب الأدب الشعبي من الإصلاح إلى الثورة، تأليف أحمد زغب، إصدار رابطة الفكر ودار الثقافة بالوادي، الوادي 2009 ص 4.

(6) التلي بن الشيخ .منطلقات التفكير في الأدب الشعبي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990 ص12.

(7) حسن نجمي المرجع السابق ص 21.

(8) والتر أونج الشفاهية والكتابية ترجمة حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة الكويت، 1994 .ص157.

(9) أونج المرجع السابق ص197.

(10) Jack Goody La raison graphique.Domestication de la pensée sauvage P87.

(11) أونج المرجع السابق.

(12) بول زوميتور، مدخل إلى الشعر الشفاهي، ترجمة وليد الخشاب، شرقيات للنشر والتوزيع القاهرة 1999.ص21.

(13) زوميتور، المرجع السابق ص20.

(14) حسن نجمي، المرجع السابق ص23.

(15) محمد المرزوقي، الأدب الشعبي في تونس، الدار التونسية للنشر، 1969، ص77.

(16) ينظر: جيرار لكليرك الأنثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2 1990.ص38 وما يليها.

(17) لخضر لوصيف: الصورة في الشعر الشعبي الجزائري في ضوء الدراسات الحديثة، بحث لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر، 2010/2009.ص5

(18) المرجع نفسه ص187.

(19) الجيلاني حلام، المنهج السيميائي وتحليل البنية العميقة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، ع 365، دمشق 2001.